عنوان المداخلة: بين التراث والحداثة (تهديد أم تجديد)

إلى: الملتقى الدولي الافتراضي: النص التراثي العربي في منظورات الحداثة وما بعدها.

جامعة الشهيد حمة لخضر– الوادي.

المحور: التراث العربي والحداثة وما بعدها علاقة صدام أم استثمار.

إعداد الباحثين:تاريخ إعادة الإرسال للنشر:15 جويلية 2021م

عبد العزيز بن تيشةعلي بن تيشة

دراسات نقدية – جامعة وهران 1 أدب عالمي ومقارن– جامعة قسنطينة 1

Abouzaid2007@gmail.comalibenticha1980@gmail.com

مقدمة:

التراث والحداثة من أهم الجدليات التي انشغل بها الفكر العربي الحديث والمعاصر، منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وما يزال النقاش حول التراث إلى يوم الناس هذا، وقد اختلفت النظريات والآراء لدى المفكرين والباحثين عن كيفية معالجتهم وفهمهم لهاته القضية، وتكاد تنحصر في ثلاثة آراء: رأي ينسف التراث بكل ما فيه، ورأي يقدِّس التراث بما فيه، ورأي ثالثٌ ينتقي منه ويختار. وقبل الخوض في خضّم هذه القضية لابد لنا أن نتساءل عن ماهية التراث وحقيقته، وما الوصف الجامع لاسم الحداثة، والتعريف المانع لها؟ وهل يقف التراث عقبة في وجه الحداثة؟ وهل أُغلق باب التجديد والتطوير والتغيير؟ وهل يحتاج التراث إلى مراجعة فاحصة تنتقي منه وتتخير؟ وكيف نتعامل مع دعوات مرفوعة تطلب إعادة قراءة النص القرآني من جديد؟ أو بالأحرى في سؤال جامع، هل الحداثة تهديد للتراث أم تجديد له؟

التراث والحداثة ثنائية قديمة تبلور عدة ثنائيات (القديم والجديد/ الماضي والحاضر/ المنقول والمعقول) مما يمثل التفاتة إلى أطوار مختلفة ملحوظة في مجالات الحياة العلمية والأسرية والاجتماعية والمعرفية وحتى شؤون الدولة والسياسة والحكم، والحوار في ثنائية التراث والحداثة ماض إلى أمد بعيد، لأنه مرتبط بماض فكري وفلسفي وسياسي وديني وحضاري سحيق، وهذا الماضي عبارة عن محاورات وجدليات وسرديات بين السابقين والحاضرين واللاحقين.

والقرن الثاني الهجري بالنسبة إلى القرن الأول يمثل الحاضر سواء في التدوين العلمي والإنجاز السياسي والإنتاج الحضاري؛ لذلك هذه الثنائية الجدلية المتعلقة بها إنما هي ماضية إلى يوم القيامة، والحديث عنها يتأسس حول موضوعها ومضمونها وعن ماهية الماضي والحاضر والقديم والجديد.

مفهوم التراث:

التراث لفظة إسلامية عربية تعني الموروث والماضي على مستوى العلم والاجتهاد وأيضا على مستوى المقاربات السياسية في الدولة وفي المجتمع، وكذا على مستوى التركيب الكمّي المعرفي الهائل. "والتراث هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو موروث وفي نفس الوقت قضية معطى حاضر على عديد من المستويات"[1]، "ويشمل الدين ومصادره، وما جاء عنها.. ويشمل أقوال المفسرين والشارحين والعلماء، وجميع الثقافات السابقة. فالتراث الإسلامي، هو ما ورثناه من عقيدة وشريعة وقيم وآداب وصناعات وسائر المنجزات الأخرى المعنوية والمادية التي ورثناها عن أسلافنا في تأريخنا الاسلامي"[2].

كل هذا يمثل تراثا، فهذا التراث وبهذا الاتساع الجغرافي والمفهومي، يتطلب النظر في إيجابياته الحقيقية، والدعوة إليها والدفاع عنها، والنظر في نقائصه والتحذير من مخاطرها وأضرارها.

إذا كان المقصود بالتراث التمثل الصحيح للإسلام من خلال القرآن والسنة وثوابت الأمة ومقدساتها الدينية والعقدية، فهذا لا يلحقه التأثير والتغيير والتجديد باعتباره ثابتا في كل زمان ومكان. فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وما تضمناه من أصولٍ ومقدسات عقدية وغيبية فهي أيضا ثابتة وراسخة إلى يوم الدين، وهي صالحة لكل زمان ومكان، لا يسوغ فيها التجديد الذي هو بمعنى التبديل والتغيير والتحريف، ولكن لا بأس بالاستنباطات الطارئة اللغوية المفاهيمية المستندة إلى برهان ودليل [3]. "وتراث الأمة هو معين الهوية التاريخية والاجتماعية للحضارة والأمة، وهو سبب تميز ثقافة الأمة عن ثقافات الأمم الأخرى.. لكن هذا التراث يجب ألّا يكون عقبة أمام التغيير والتقدم والتجديد، وإنما يجب أن يستند إليه ويرتكز عليه أي تغيير.. فلا يجب تحويل التراث إلى عقبة أمام التغيير.. ولا يصح أن يتم التغيير بمعزل عن التراث.."[4].

إن القضايا الكلية والنصوص الشرعية واللغة العربية المحفوظة بحفظ القرآن الكريم – كيف لا وهي وعاؤه – مسلمات بديهية، أما باب الاجتهادات العلمية بتعبيراته وأنساق نظامه في الفتوى والقضاء، وسائر المسالك التعبيرية العرفية، فهو مفتوح لأهله والمتبصرين به وفق ضوابطه المعلومة المعروفة، كالعرف والمصالح المرسلة.

مفهوم الحداثة:

هي مصطلح يشير إلى جملة التحولات العميقة التي مر بها المجتمع الغربي فنقلته من عصر قديم إلى آخر يختلف عن سابقه في كل شيء، أو هي عبارة مستحدثة في الجانب الفلسفي والفكري. وقد لخّص طه عبد الرحمن الحداثة في مفاهيم عدة أولاها "النهوض بأسباب العقل والتقدم والتحرر، ثانيها ممارسة السيادات الثلاث عن طريق العلم والتقنية: السيادة على الطبيعة والسيادة على المجتمع والسيادة على الذات، ثالثها قطع الصلة بالتراث وطلب التجديد أو محو القدسية من العالم أو قطع الصلة بالدين.. "[5].

ويطلق لفظ الحداثة على مضمون فلسفي، أو على مقاربات سياسية وتعبيرات فكرية، مفادها الحداثة بمفهوم غربي بحت، ونسق فلسفي عميق، هو المدنية والمادية، وهو أيضا استبعادُ الدين في جانبٍ ما، واستبعادُ القيم، وهو ما يعرف بالأنسنة (تقديس العقل)، وعدم النظر في أي شيء إلا العقل، وكذلك هي استبعادٌ لكل غيبي ميتافيزيقي وأخلاقي، هذا جانب كبير من الحداثة، وإن كانت الحداثة ذاتها بمقارباتها وسياقاتها تختلف عن ما بعد الحداثة، وهي طور آخر يتأسس على الحداثة بمفهوم جديد ومقاربات متجددة، يتم فيها استدعاء الدين والقيم والأخلاق، فيها مراجعات عدة شملت مثلا مفهوم الديمقراطية وما آلت إليه من عذابات الإنسانية المختلفة.

فالحداثة أنساق عالية من التركيب والتشعيب الفكري والعملي، فهي خلاصةُ تجربة غربية في مختلف المجالات، وهي "الموضوع الذي بدأه المصلحون الدينيون كما سار فيه بعض الباحثين المعاصرين، ولكن التحليلات كلها إما جزئية ولا تشمل الكل، وإما تكتفي بمجرد التعبير عن الأماني والنيات الحسنة في تجديد التراث، وإما تعبيرات خطابية وأساليب بيانية تلهب حماس الناس وتعلن عن الكاتب أكثر مما تكشف شيئا، وإما أسيرة قوالب التراث الغربي تجدد من خلاله، فهو تجديد من خارج التراث وليس من داخله"[6].

مفهوم التجديد:

وردت كلمة التجديد في القرآن الكريم بلفظ الجديد، وفي التفسير جاء بمعنى البعث والإعادة، أي إعادة الخلق من جديد، كما كان من قبل، أما في السنة النبوية فماثلت إلى حد كبير معاني اللفظة في القرآن الكريم، ومنها الإحياء، والجدُّ والاجتهاد، وتوثيق العهود وتوكيدها، وكذلك الغنى والحظّ والعظمة.

لقد جاء في كلام النبي ﷺ لفظة التجديد، كما يرويه أبو داود (480/4)، «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»، وتجديده هنا بمعنى إحياء العمل به بعد اندراسه وتصحيحه، وتأتي بمعان كثيرة أخرى، كإحياء العلوم بنقلها عبر الأجيال، وتأصيل علوم الدين وحضُّ الناس عليها.. يذكر مُحَمَّد العلي في هذا الصدد ويبين أنّ التجديد هو إحياء ما اندرس أو ضعف من أصول الدين وفروعه قولا وعملا، وإعادته إلى حالته الصحيحة التي جاء بها الكتاب والسنة.

ولا يدخل التجديد كل شيء؛ بل مجالات مخصوصة، لأن من المتنطعين والعقلانيين من أدخلوا في الدين ما ليس منه، وأزاحوا عنه ما هو أصل من أصوله، باسم التجديد والتحديث والتغيير، وهم يُطلق عنهم اسم الحداثة (الحداثيون).

نشأة فكرة الحداثة الأوروبية:

في القرن الخامس والسادس عشر للميلاد حدثت نهضة كبيرة، بعد تفكك علاقات الإنتاج الاقطاعية وبعد نهاية الحروب الصليبية، حدثت حركات وتحولات بنيوية كبيرة نذكر منها:

-حركة الإصلاح الديني ومحاولة فصل السياسة عن الدين (المسيحية).

-حركة الاستكشافات الجغرافية التي فتحت آفاق العالم أمام أوروبا (المحيطات ...).

-اكتشاف أمريكا كان نقلة كبيرة بالنسبة للنهضة وبداية الحداثة في أوروبا.

-الفيكتوري التي أحدثت الثورة الصناعية أواسط القرن الثامن عشر.

جاءت الحداثة كمنتوج غربي، وهي تلخيص لكل المراحل التي مرت بها الحضارة الغربية، بدءا من القرون الوسطى(عصر الظلام)، ثم جاء الإصلاح والنهضة وعصر الأنوار، وبعد الثورة الفرنسية ولدت الحداثة المعروفة اليوم، بهذا فالحداثة رؤية كونية وفلسفة متكاملة نشأت وتطورت وفق مفاهيم وتطورات الحضارة الغربية، وجوهر الكلام عن الحداثة هو كلام عن الحضارة الغربية التي نشأت من جراء صراع بين الكنيسة والعلم، صراع بين رجال الدين ورجال السياسة وبين القديم والجديد وكذا بين العقل والدين، هذا الصراع في نهاية المطاف تغلّب فيه العقل والعلم والطبيعة والحس عن الدين، فكانت هذه المعطيات العقلانية والإنسانية والفردانية والحقوق والفصل السياسي والاجتماعي. الحداثة لا ترتبط بزمن؛ بل هي مفهوم متطور ومتجدد بتطور وتجدد العقل والمجتمع والحضارة والانسان. وفلاسفة الحداثة أجيال، كل جيل ينقد الذي قبله، لأن الحداثة ضد التقليد أو هي نوع من العدمية -إذا صح التعبير – فليس هناك شيء نهائيٌّ البتّة.

أصل فكرة الحداثة:

لقد شغلت الحداثة "فضاء ثقافتنا، ودار الجدل حولها منذ أكثر من قرن من الزمان؛ فإنها ثقافة الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة، التي تميزت عن ثقافتنا الإسلامية، بل وعن ثقافة أوروبا في العصور الوسطى.. بالتمحور حول الانسان بدلا من التمحور حول الله" [7]، "وطرحت الحداثة مشكلة الإنسان في وجوده، وحلّقت في فلك استلهام الموقف الحضاري. فالمدنية الغربية، بلا ريب، تجذرت في واقع العرب الحضاري، وانعكست علاقة الغرب بالشرق سلبيا"[8] كمظاهر الاستعمار للدول العربية، وملك زمام التقنية، والتمركز نحو المادية الصرفة.

بدأت الحداثة حين بدأت عند ديكارت حين جعل نظرية المعرفة (كيف نعرف) أساس وبداية في الفلسفة، حيث يعتبر "«أنا أفكر إذن أنا موجود» أول إرهاصاتها. لقد حدد ديكارت النفس الإنسانية بالفكر والوعي. ودرس.. ثنائية النفس والجسد ووضّح خصائص كل منهما والعلاقة بينهما، رافضا كل ما قدمه الفلاسفة السابقون"[9]، بدأ من الصفر، أنا أشك، أنا أفكر فأنا موجود فهو يشك في كل معارفه، ويريد أن يبدأ من الصفر من

غير اعتماد على أي شيء ويرتب العلوم والمعارف من لا شيء، أما الخطوة الثانية هو أن فيه إلاه، ثم هذا الإله لا يمكن أن يخدعني وبالتالي كيف نعرف؟ كيف نعتمد العقلانية؟ كيف نستكشف العالم؟ وفي النهاية هو من تنبأ عند "نيتشه" بموت الإله" الذي يؤدي إلى الإلحاد.

تؤكّد الحداثة بصفة خاصة "على أن التحديث يفرض تحطيم العلاقات الاجتماعية والمشاعر والعادات والاعتقادات المسماة بالتقليدية، وأن فاعل التحديث ليس فئة أو طبقة اجتماعية معينة وإنما هو العقل نفسه والضرورة التاريخية التي مهّدت لانتصاره. وهكذا أصبحت العقلانية، وهي عنصر لا غنى عنه للحداثة، آلية تلقائية وضرورية للتحديث"[10].

المبادئ العامة للحداثة:

يمكن أن نجملها في النقاط الآتية.

– العقلانية (الانسان قادر على فهم العالم، وبهذا الفهم قادر على توليد منظومات معرفية وجمالية بواسطة تفاعل العقلانية مع العالم..).

– الأداتية الإجرائية الصارمة (جعلت العالم الطبيعي كالآلة ... فهم العالم يصح أن يكون في قوانين رياضية محكمة ويشمل كل العلوم الطبيعية. ووحدة العلوم، نفس القوانين التي تجري على الأرض والسماء..).

– فصل المعاني والقيم عن العلوم (التحرر من الدين..).

– النظر في قبول أو رفض التقاليد والموروث.

– العالم الطبيعي يوجد فيه ما تحتاج إليه بالكامل والسيطرة عليه (الدولة المركزية والقومية..).

– من خلال هذا التفاعل المستمر تتقدم المعرفة اجتماعيا ...الخ.

– الانسان حر مختار (تقديم الذاتية والحرية والدعوة إلى التخصص..).

– التحول من الاقطاع إلى الصراع، اقتصاد السوق والاشتراكية والرأسمالية.

– العدالة بين الناس أمام القانون (الديمقراطية والعلمانية..).

هذه مبادئ الحداثة العامة، التي تغلغلت في مسائل العلوم العربية والإسلامية، ونضرب أمثلة لا على سبيل الحصر، قضية الحمل ومدته، وأنها تصل إلى أربع سنوات، وقضية من أراد حملا ذكرا أو أنثى.

الدين وشبح الحداثة:

كثيرٌ هم الذين يرجعون "الهزيمة ولواحقها إلى تفريط العرب في قيمهم الروحية وتخلّيهم عن تعاليم الدين الحنيف، وانخراطهم في الممارسات الدهرية التي تحملها إليهم الحضارة التقنية الحديثة" [11]. صراع طويل بين الإسلام والتحولات الحداثية، فالإسلام الذي يمثل دين الله تعالى في الأرض، والحداثة بجميع أبعادها تمثل الوضع الجديد الذي نقل المجتمعات الغربية من عصر الظلام والتخلف إلى عصر الحضارة الغربية التي نواقع سطوتها، ونعايش ظلالها اختيارا وكرها حتى كادت أن تكون كونية لكل البشر.

لقد تشكلت الحداثة في جملة من آراء "الباحثين اللاهوتيين والمدنيين الذين يطالبون بتحديث النصوص الإنجيلية لتتفق مع الواقع العلمي والتاريخ المعاش.. فمن غير المعقول بل ومن المرفوض قطعا استخدام هذه العبارات على القرآن والإسلام حيث إن العلم والتاريخ.. يثبتان أن القرآن الكريم منزّل وأنه قد تمّ تثبيته بلا تحريف أو تغيير، منذ أوحي به إلى سيدنا مُحَمَّد ﷺ وسيظل كذلك حتى يوم القيامة، فالله عز وجل هو الذي أنزله وهو حافظه"[12]، وفي المقابل لدى المسلمين إرث حضاري كبير يمثل الدين نقطة ارتكازه بكل ما يحمله من قيم وأخلاق وعقائد وشرائع وفقه ومعاملات وعلوم ومعارف، وما يزخر به من تصورات عن الانسان والكون والحياة. وبهذا الوصف يقع الصدام حتما بين حضارة راهنة نعيشها بكل تفاصيلها، وبين موروث حضاري زاخر يملك زمام أفكارنا ومبادئنا ووجداننا وآمالنا.

هل تهدد الحداثة بكل أبعادها موروثنا الحضاري وتراثنا العميق؟ فليس كل حديث (جديد) صالح أن يكون أنموذجا نسير وراءه، ونحتذي حذوه، بل ينبغي النظر في الموافق للفِطَر وغير المصادم للهوية العربية الإسلامية، فيجب أن يكون هناك دفاع عن الموروث من أن يهدد كيانه مذموم الحداثة، وإنّ مما ينبغي التنبيه عليه هنا أنّ "استخدام عبارة الحداثة بالنسبة للقرآن [توحي بأن فيه التحريف والتناقض، وأنه بحاجة إلى التصويب]، وهو أمرٌ مرفوض كلية لتنافيه مع الحقيقة؛ لأن معطيات القرآن الكريم جميعها تصمد للتحليل العلمي" [13]، وفي الوقت ذاته العمل على الاستفادة منها بما يناسب وضعنا الديني والعربي والإسلامي ويعلي من شأن هويتنا وخصوصيتنا، وهو ما يعبر عنه بالدمج والتوفيق، من غير مخالفة ضارة أو تضييق أو الوقوع في التلفيق.

إن المنجز الحداثي الغربي وأتباعه يقترحون "مناهج وأدوات نظر وآليات فهمٍ تجدّدُ فهمَ الدين، وتقرأ النص الديني من دون التوكؤ على أصول الفقه وغيره من المناهج وأدوات النظر وآليات الفهم القديمة" [14]، فكان لها ما أرادت في غياب المنافس، واستطاعت أن تخلق زمانها الخاص، وأن تعمم أنموذجها الثقافي والحضاري، ممّا شكّل تحديات حقيقية للحضارة العربية على كافة الأصعدة والمستويات، ليجد العربي والمسلم نفسه محاصرا بأسئلة زمانه، التي تحتم أن يجيب عليها، فمنهم من واجه التهديد الحداثي والمأزق الغربي بالعداء الكامل لكل ما هو حديث أو

عصري ومحاولة تجريحه بالنقد وردّه بالنصوص الموروثة تارة، وبالمناهج النقدية الغربية تارة أخرى، أو وصفِه بالفكر الدخيل أو المستورد وثقافة المحتل أو الغرب الكافر، ومنهم حاول التوفيق بين الحداثة والتراث وزعم اتباعه منهجا علميا في التبرير بما يأخذه التراث من الحداثة.

وآخرون أسقطوا مفاهيم الحداثة الغربية على مصطلحات الفقهاء وبحثوا في تراث الإسلام عن أصول ونماذج للحداثة الغربية ونسبتها إليه، على اعتبار أن المنجزات العلمية مذكورة في القرآن الكريم والعقلانية الغربية ماهي إلا استجابة طبيعية للأمر الإلهي بإعمال العقل والفكر.

التراث القديم حضارة عامة تجمع علوما شتى وثقافات عدة ابتداءً من العلوم الإنسانية إلى الفلسفة الحضارية، مرورا بفقه الوجود إلى الفكر الأصولي الفقهي وتعريجا إلى علوم التصوف الوجداني وختاما بالعلوم النقلية والطبيعية كالعلوم المتعلقة بنصوص الوحي، وعلوم الكيمياء والطب، ويتعلق ما ذكرنا اسقاطا على الحضارتين العربية الإسلامية والأوروبية الغربية، ويتحدد الموقف من كليهما بواسطة النظر الفاحص إلى سيرورة حركة تاريخهما في شتى المجالات وعلى كافة الأصعدة.

وقد أشار حسن حنفي في كتابه "التراث والتجديد" إلى تحليل وضع قضية الكتاب، وأرجع الآراء فيها إلى تجاذبات عدة، وذكر منها فريقا اكتفى ذاتيا بالتراث، على أساس أنه لا يصلح هذه الأمة إلا ما صلح به أولها، وفريقا اكتفى ذاتيا بالتجديد على أساس أن الارتباط بالتراث القديم نوع من الاغتراب ونقص في الشجاعة، وفريقا ثالثا اجتهد في الجمع بين التراث القديم والتجديد الحديث.

إن قضية التراث والتجديد هي قضيةُ التنظير المباشر للواقع – كما يرى حسن حنفي – "وضد خطأين شائعين: الأول الذي يتحدث عن العصر وكأن العصر يحتوي على حلوله في ذاته وأنه يكفي مجرد إجابة متطلباته حتى تحل مشاكله.. ولكن العصر ذاته يحتوي على المخزون النفسي القديم باعتباره أحد مكونات الواقع. أما الدخول في الواقع مباشرة ومحاولة تنظيره فهو نقص في النظرة الموضوعية، وإغفال للأساس النفسي لسلوك الجماهير، والتعامل مع الظواهر الإنسانية وكأنها ظواهر طبيعية خالصة.. والخطأ الثاني هو الذي يبدأ باستنباط الواقع من نظرية مسبقة سواء كانت موروثة أو منقولة أو عصرية تجمع بين الموروث والمنقول. فالتراث والتجديد ليس المقصود منه التعامل مع معطيات ثقافية والإصلاح بينها؛ بل المقصود منه إدراك الواقع بنظرية علمية"، هل أصبحت الحداثة الغربية حتمية لا مفر منها؟ أم أن هناك خيار آخر [15]؟ "ليس التجديد نقيضا لاكتمال الدين وثباته، بل إنه السبيل لامتداد تأثيرات الدين الكامل وثوابته وأصوله إلى الميادين الجديدة، والأمور المستحدثة، والضمان لبقاء الأصول صالحة دائمة لكل زمان ومكان"[16].

الحداثة أيديولوجية واختبار فكري بالدرجة الأولى ثم اختبار سلوكي، والواقع أن الحداثة هي حالة تاريخية دخلها العالم منذ القرن الثالث عشر للميلاد أو قبل ذلك بقليل – على حسب قول المؤرخين شأنها شأن الثورة الزراعية أو المرحلة الزراعية التي دخلها الانسان، فالحداثة اليوم لم تفتح مجال الاختيار أو الرفض، لأنها فرضت نفسها على جميع مناحي الحياة الإنسانية قهرا فالحداثة شملت دول عدة، لكنها لم تفرض نمطا محددا أو صيغة معينة من السلوك، فهي طريقة في التفكير قائمة في الأساس على إعادة الاعتبار للإنسان والعقل في تدبير الحياة.
والنموذج المهيمن اليوم هو الحداثة الغربية فهل بالإمكان التعامل معه والاستفادة منه بدون أضرار جانبية وتمس الدين والفكر والحياة.

قد تنتج بعض الدول مثل هذه الحداثة، وتدخل تجاربها لكنها لا تضمن الانصهار فيها والامتزاج معها من دون شعور وليس شرطا أن تكون الحداثة على نسق واحد أو تلتزم الأنموذج الغربي مطابقة، وعليه فحضور المدنية الغربية لا يضير التراث العربي، ولا حياته الآنية إذا ما أحسن استعمالها، حيث يأخذ منها ما يناسب دينه وهويته ولغته وخصوصيته، وقد كان العرب والمسلمون الأوائل يأخذون عن غيرهم من معاصريهم، واليوم المسلمون قد يستجلبون كذلك من ثقافات وحضاراتٍ ومن الحداثة الغربية، وهذا أمر يفرضه الواقع المعاصر بمدنيته الباهرة في كل شيء. يمكن الاستفادة من الحضارة الغربية وعلومها بما يناسب هويتنا ويلائم خصوصيتنا ويلبي احتياجاتنا من غير ما ضرر، بمعنى آخر، لا ندفع ثمنه من خصوصيتنا الحضارية الإسلامية والمسلمون مطالبون بأن ينتجوا حداثة خاصة بهم، أو من صنع أيديهم ونتاج أفكارهم.

الحداثة لها ركيزتان أساسيتان (العقلانية) و(العلمانية) تتعامل مع الكون بالعقل، بعيدا عن أي مصدر خارجي، فما ينتجه العقل هو ما يصنع الحداثة، وواجهة الحداثة العلمانية (الدنيوية) أي أنها معنية بأمر الدنيا فقط، فلا آخرة ولا غيب، ومحورها الأساس يقوم على "فصل الدين عن إدارة الدولة وتنظيم شؤون حياة الناس العامة اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا، وهذا هو الهدف [الذي قامت الحداثة] من أجله من أول أيامها في أوروبا في نهاية القرون الوسطى"[17]، ومن أبرز سماتها:

-حرية الفكر المطلقة.

-حرية التدين المطلقة.

-حرية المرأة ومساواتها بالحقوق والواجبات مع الرجل.

-التعددية السياسية.

-المطالبة بالإصلاح الديني.

-فصل الدين عن الدولة.

-إخضاع المقدس والتراث للنقد العلمي[18].

طبيعيٌّ أن يتحول الانسان الغربي بداية عصر النهضة هذا التحول الكبير يوم كان الانسان الغربي رهينة في يد الكنيسة، وهي من تحدد مصيره، حيث كل مشاكله تحل عبر بوابة الكنيسة والبابا والعقل الديني، ، لأنه أراد التخلص من ربقة الكنيسة وسجن اللاهوت إلى تقرير مصيره بنفسه باعتباره كائنا عاقلا، والعقل في نظره هو الأداة الرئيسية لحل جميع مشاكله. إنّ هذا التحول الحاصل والذي نتج عنه الحداثة، له ما يبرره من الثقل التاريخي والسياق الحضاري في أوروبا والغرب عموما.

إن الانسان المسلم اليوم – في المقابل – يتعامل مع العقل بصفة حميدة إلى حد كبير، ودين الإسلام لا يمنع إعمال العقل، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تمدح وتحض على التعقل والتفكر والتذكر في الكون وفي الحياة، إذا أتينا إلى العلمانية نجد أن الحياة الإنسانية الغربية كانت كالأسير في يد الكنيسة والرهبان والقساوسة يفعلون بها ما يشاءون، فحرروا أنفسهم من الكنيسة بمبدأ العلمانية.

في دين الإسلام ومع المسلمين الأمر مختلف، فلا نذهب هذا المذهب ولا إلى هذه الحدود، بل جاء في الكتاب والسنة ما يصلح حياة الانسان الدنيوية والأخروية. عقيدة وشريعة وأخلاقا.. في آن واحد.

إنّ البحث عن نهضة رائدة للعرب والمسلمين في شتى الميادين تتجاذبها أفكار ورؤى متباينة، فمن قائل: بالأخذ بتجارب الأمم الناهضة والمتحضرة، وآخر يدعو إلى الرجوع للتراث الحضاري الإسلامي ففيه الغُنية من كل شيء، يتفرع عن هذا القول سؤال مهم وهو الآتي: هل نحن بحاجة إلى تقد تاريخنا الحضاري وإرثنا الإسلامي والتنقيب فيه؟ أم يكفي القيام بإصلاح الواقع كيفما اتفق؟

يتحكم في هذا الوضع إبداع فكري وسلوك وسائل راقية وآليات خاصة، نجدها في التراث الإسلامي أو نستقيها من الغير بمعطيات لها علاقة بهويتنا وديننا وعربيتنا، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها، لكن مع الوضع في الحسبان ظروف النقل للتجارب والخبرات من التاريخ إلى الحاضر وحيثيات المعارف والتجارب من بلد إلى بلد آخر، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالدين والهوية والمرجعية لأن بعض أسرار نجاحها تعود إلى البيئة والأشخاص والمفاهيم والأعراف.

فحلول مشاكل العرب والمسلمين حقيقة ليست موجودة لدى الغرب ولا في النقل العشوائي للتاريخ والتجارب دون استبصار لكن يمكن الاقتباس والأخذ فيما لا ضرر له على مقدساتنا وثوابتنا الأصيلة، نخاف عليها ونرعاها، فهي هويتنا الأساسية.

صحيح أنه ليس هناك إصلاح للواقع بدون نقد بنّاء ومن وجه آخر، العمل الإصلاحي هو عمل اجتهادي يعتريه الخطأ والصواب وفي أمور الدنيا بشكل خاص والنبي ﷺ لما سألوه عن تأبير النخل قال أنتم أعلم بشؤون دنياكم، وعليه فالتقليد الأعمى مذموم غير محمود بل لابد من البصيرة، ضروريٌّ جدا ألّا ننس حضارتنا وإرثنا التاريخي وتأثيرنا كمسلمين في أوروبا، فليس من الصواب أن ننسف هذا الموروث برمته فإذا رميناه ماذا يبقى لنا؟

دخول الحداثة العالم العربي والإسلامي:

وهنا سؤال يطرح نفسه أولا، هل عاش العالم الإسلامي نفس الأوضاع والظلمات والصراع التي عاشها العالم الغربي؟ إذا رجعنا إلى التاريخ الإسلامي نجد أنه عصر الأنوار والهداية والتعاون، إذا كان ذلك كذلك، فما الحاجة التي أدت إلى انتقال الحداثة من المجتمعات الغربية إلى المجتمعات الإسلامية، ينبغي التفريق بين الحداثة والمعاصرة، فالمعاصرة هي زمن كلي تعيشه كل المجتمعات على اختلاف مرجعياتها وفلسفاتها وقيمها، فالكل يعيش نفس العصر، لكن إذا تكلمنا عن الحداثة فإنّ لها خصوصيتها وقواعدها وأسسها وتاريخها حسب الظروف والملابسات والأحوال التي نشأت فيها. هل نحن الآن كعرب ومسلمين بحاجة إلى المعاصرة، أم في حاجة إلى الحداثة؟ وهل توجه الحداثة تهديدا لموروثنا وهويتنا الإسلامية والعربية، أم أنها تجديد إيجابي مقبول؟ وكيف نعيش المعاصرة التي هي جوهر الحداثة اليوم؟

يزخر عصر اليوم بالعلم والتكنولوجيا وحقوق الانسان والديمقراطية وحقوق المرأة والمجتمع المدني.. فهذه منتجات الحداثة وهي في نفس الوقت قيم الحياة المعاصرة والمعضلة فيه، هل يمكن التوفيق بين المعاصرة وتوابعها الحداثية وبين القيم التي نحملها والموروث الثقافي الإسلامي العتيق الذي نملكه، فعالمنا يخالف جذريا العالمَ الذي نشأت فيه الحداثة التي أنتجت المعاصرة اليوم، وإذا استسلمنا للحياة المعاصرة عشنا ضمنيا تيار الحداثة بكل أبعاده.

لقد مر دخول الحداثة المجتمعات العربية والإسلامية بنفس المراحل التي مرت بها في العالم الغربي من ناحية التقسيم، وأول ظاهرة دخلت بها الحداثة هي الاتصال مع الآخر، لكن هذا الاتصال لم يصطبغ بصبغة الندية؛ بل كان اتصال الأعلى مع الأدنى والقوي مع الضعيف، ومن ثَمّ فإن الحداثة ودخولها العالم العربي والإسلامي بدأ بما يسمى بصدمة الحداثة والانبهار بزخرفها وبريقها الخادع، حيث تلقّت نتائجها "من دون أن تكون مهدها أو مخاضها المباشر. إنها إذا خلخلة تتفاوت قوة وعنفاً في جميع مستويات الحياة في المجتمعات التي عانت الحداثة، إما داخليا أو

نتيجة صدمة خارجية"[19]، وصدمة الحداثة هذه بدأت بدخول الجيوش الأوروبية (حملة نابليون بونابارت على مصر سنة 1798م) في المجتمع العربي، ومن هنا قَدِمت الحداثة الغربية وجاءت مقنَّعة بوجهين:

وجه مشرق: (ما يظهر للعيان من قصد التقدم والتحضر والنهوض)، وهي الفكرة التي اعتنقها بعض المفكرين العرب ولبسوا سربالها بحجة أنه لا يمكن التقدم إلا بما تقدم به الغرب؛ وبالتالي لا نرتقي ولا نتخلص من تخلفنا إلا إذا اتبعناهم – كما يزعمون– ومن هنا دخل الفكر الغربي ودخلت فكرة الحداثة إلى المجتمع العربي والإسلامي.

ووجه دفين: وهو السيطرة والهيمنة بالاستعمار وزرع بذور وقيم حضارتها في الفكر الإنساني العربي والإسلامي، من مبادئ الحداثة الغربية والعلم بديل عن الدين، تفسير الكون والطبيعة تفسيرا مكانيا، أي ليس هناك قوة خارج الكون، العقل كبديل للنقل مصادر المعرفة واحد هو العقل، معنى هذا أنه لا وجود للدين ولا وجود للمقدس وللقرآن الكريم والسنة النبوية وللغيب أيضا، والقيم باختلافها النفسي والأخلاقي كلها أنتجها المجتمع، أي أن المجتمع يمشي للمجهول وبلا هدف معيّن.

رجال الإصلاح وتأثير الحداثة:

أغلب رجال النهضة من المشرق العربي درسوا في أوروبا من قبل بعثة "مُحَمَّد علي باشا" ومنهم (الطهطاوي، خير الدين التونسي، مُحَمَّد عبده، جمال الدين الأفغاني.. إلى الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر)؛ التي نقلت فكر الحداثة والنهضة الأوروبية إلى العالم العربي والإسلامي بحجة التقدم، وهم طبقات ومواقف حتّى لا يُعمم الحكم على الجميع.

فمنهم من تنكَّر تماما للماضي والتراث العربي والإسلامي على أساس أنه ماضي، وأراد أن يعيش حاضره وما يعاصره، حيث جعل التراث هو السبب في التخلف – زعموا– كما تخلّفت أوروبا، وبالتالي أشاروا بالقطيعة عن التراث الإسلامي والعربي، وهم الحداثيون، الذين رأوا العصا السحرية في "قبول الحضارة الغربية بجميع أبعادها ومتطلباتها ومستلزماتها، بما في ذلك ثقافة الحداثة.. فأمسوا عمليا وعن وعي في الكثير من المواقف، منفذّين لتطلعات الغرب الاستعمارية في بلدانهم.."[20].

وهناك تيار آخر أقل حداثة وأقل استئصالية، "يتعاملون مع التراث ومع الغرب الحضاري بمنهج نقدي.. جعلهم يجمعون، بالتجديد – المستصحب للثوابت، والمجدّد في المتغيرات – كلاً من ميزات التقليديين وميزات الحداثيين، دون سلبياتهما.."[21] يريدون أن يأخذوا من أوروبا ما يتوافق مع القيم العربية والإسلامية، وأغلب رجال الإصلاح كانوا من هذه الفئة، وإن لم يكونوا على علم بخلفيات الحداثة وفلسفاتها، بل رأوا من زاوية الوجه المشرق فقط من الحضارة الغربية.

تهديد الحداثة للدين ومقوماته:

الحداثة حرب للغة العربية التي هي وعاء القرآن، من أناس تنكّروا لعربيتهم بخلاف الانجليز الذين أكرموا لغتهم فأكرمتهم وصعدوا بها فأصعدتهم، وعمّت العالم، لأن استخدام اللغة وبقاءها فيالحقيقة هو بقاءٌ لأهلها، والعرب الحداثيون يريدون قتل أنفسهم بقتلهم للغتهم ومحوها التي يُمحى بها وجودهم، واللغة العربية أكمل لغة في العالم منذ خلق الله العالم إلى اليوم، والحداثة تهديد للدّين لأنها تدعو للتنصل منه ومن إلزاماته وشرائعه حتى لو كان يهوديا أو نصرانيا، وعلى هذا القول فهم ملحدون يتمتعون في حياتهم الدنيوية بالأكل والشرب والمتاع يحيَون ويموتون، فلا يؤمنون ببعث ولا حساب ولا عقاب، الحداثة تريد القضاء على كلِّ خُلق حسن سليم، وقاعدتها تنجرُّ على كل شيء، على الدين والخلق واللغة..

تريد الحداثة أن ينسلخ الانسان من بشريته ويلتحق بالبهائم العُجم والتي إذا اشتهت أي شيء لم يمنعها عن تناوله أي عقل، يعترض رشيد رضا (مجلة المنار) ويقول إنه لا إصلاح يقوم إلا بالإسلام. قال مالك: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. يقول رشيد رضا: "لا تقل أيها المسلم إنّ هذا الحكم هو أصل من أصول ديننا، فنحن استفدنا من الكتاب المبين ومن سيرة الخلفاء الراشدين، لا من معاشرة الأوروبيين والوقوف على حال الغربيين؛ فإنه لولا الاعتبار بحال هؤلاء الناس لما فكّرت أنت وأمثالك بأن هذا من الإسلام"[22]، أي عندما نقول عن الحرية والشورى وحقوق المرأة وعن العلاقة بين الحاكم والمحكوم، هي موجودة في نصوص الوحيين وتاريخنا وحضارتنا، لكن العيب في عدم تفعيله وتنفيذه وتمحيصه، والدافع إلى ذلك قوم من بني جلدتنا تبنوا منهج الغرب في حياته وسياساته وطريقة أفكاره

يضيف رشيد رضا، في معنى حديثه: إنني لا أنكر أن ديننا يفيدنا في ذلك، ومع ذلك كله أقول لولا اختلاطنا بالأوروبيين لما تنبهنا من حيث نحن أمة أو أمم إلى هذا الأمر العظيم، لا ننكر أنه قد يكون في الحداثة ما يصلح أخذه والاستفادة منه كمصطلح التاريخانية الجديدة، ومفهوم الأنسنة، وهي مفاهيم غربية لم يطبقها الحداثيون العرب على العلاقات الاجتماعية والعادات والتقاليد التي تتناقض مع العقل والعقلانية، لكنهم للأسف طبقوها على النص القرآني الكريم والنبوي الشريف، ومثالهم وقدوتهم في ذلك أنّ هذه المفاهيم الحداثية طُبِّقت على الكتاب المقدس لأنهم يريدون إعدام هذا النص ويثبتوا بأنه غير صالح للزمان وللمكان، الحداثيون العرب المعاصرون تحديدا أخذوا مباشرة في الإضرار بالنص القرآني والنبوي بتطبيق مفاهيم الحداثة الغربية تبنّيا لها وإيمانا بها وبرؤيتها المعاصرة[23].

انعكاسات الحداثة على العالم العربي والإسلامي:

يذكر الحداثيون العرب الجدد أن التقدم والترقي والتمدن لا يمكن أن يكون إلا على النمط الأوروبي والنسق الحداثي، وبالتالي نقد النص الديني(القرآني والنبوي) وصرفه عن الحياة المعاصرة وإحداث العلمنة في المجتمع بفصل الدين عنه وعن دولته المدنية، والعلمانية لها مفاهيم عدة، هناك علمانية شاملة وعلمانية جزئية، فالجزئية لا تتدخل في شأن العبادة، لكن تتدخل في بعض الأحوال الشخصية كالزواج، أما الشاملة فهي تفصل المجتمع نهائيا عن الدين، حتى تصبح هذه الفلسفة والرؤية إلحادا صرفا المنبثقة عن الفكرة الداروينية والتطور، والتي تأثّر بها كثير من رجال الإصلاح لغياب مفاهيمها الجوهرية عندهم.

لقد انتهج كثير من العرب ذوي الخلفية المسيحية هذا الفكر الحداثي، وأفكار هؤلاء عُمّمت على العرب جميعا مسيحيين ومسلمين، هؤلاء العرب كانوا أقليات وضد الخلافة العثمانية، وعندما نادى "جمال الدين الأفغاني" بفكرة الجامعة الإسلامية وحين سقوط الخلافة، نادوا هم بالعلمانية ليقطعوا عنه الطريق، ونادوا أيضا بالقومية العربية، أي أنهم يجتمعون على القومية العربية ولا يجتمعون على الفكرة الدينية، لأن الدين في نظرهم يفرق والوطن للجميع (الدين لله والوطن للجميع) وأصبح شعار الوطنية اليوم يُرفع في كل زمان ومكان.

وآخرون رأوا الأخذ بالنموذج الأوروبي وأنه أمر لا مناص لهم منه، ولكن يقولون لا مقاومة ولا ممانعة ولا مدافعة، ويستدلون بأن ما وصلت إليه الحضارة الغربية موجودٌ عندنا وفي ماضينا وتراثنا (كالجاحظ والمعتزلة وابن المقفع) ووسموا هؤلاء بالعلمانية والحداثة، ونحن واجب علينا إحياء تراثهم وعلومهم ونجدده فقط، وهذا التيار هو الذي أرشد إلى الموافقة وأشاد بها كالديمقراطية والاشتراكية في الإسلام، من أمثال هؤلاء "عباس محمود العقاد"، ومنهم من كان رمزا في جيل الصحوة الإسلامية سنوات السبعينات والثمانينيات، والرؤية لم تكن واضحة كما هو الشأن اليوم مع الجيل المعاصر، وأن الموقف من الحداثة ينبغي أن يكون على وعي ودراية بالمآل لا بالتقليد الأعمى، إن تبني الحداثة في المجتمعات العربية والإسلامية أنتج مجموعة من الإشكالات:

ـ التناقض الداخلي، في المسجد شيء، وفي الشارع شيء، وفي الدولة شيء آخر، وداخل الأسرة أمر آخر أي أن المجتمع العربي والإسلامي في ظلال الحداثة الغربية أحدث إزدواجيات متناقضة تقطع عنه التقدم إلى الأمام والعيش بسلام وهذا عائق (التناقض) من عوائق التقدم[24].

ـ الحداثة ليست ناتجة عن التطلع العربي والإسلامي وإنما فرضت عليه فرضا وكرها، وكان الواجب إذا أردنا حداثة تخصُّنا وتوافقنا في كل شيء أن نفعل ما يسمى بالتجديد غير المناقض للماضي القديم، وفي الآن نفسه أصيل ومفيد، فمن معاني التحديث التجديد، ولنا في تراثنا العربي والإسلامي ما يُدعى بفقه المقاصد الذي بإمكانه أن يستوعب كل المستجدات الزمانية والمكانية، ولا تتناقض مع إرثنا وذواتنا.

إذا كانت الحداثة تريد منا أن نتجاوز التقليد إلى النقد الذاتي وإلى التجديد، فإن الحداثة الغربية جعلت منا مُقلدين للآخرين، حتى قيل إن المجتمع العربي الإسلامي مقلّدٌ في الحالتين، إما مقلد لتراثه وأجداده، وإما مقلد لغيرهم، ولا يمكن أن نتقدم أو نتطور إلا إذا تجاوزنا التقليدين معا، وبناء حضارة ذاتية مستقلة. فإنّ الحضارة العربية الإسلامية تفاعلت مع الحداثة، وأصيب بناؤها بكثير من التصدّع، لأنها لم تتلقاها في إطار حركة مساجلة ومثاقفة هادئة وانتقائية عالية، بل دفعة واحدة.

لقد داهمت الحداثة العرب والمسلمين كحركة فكرية وسياسية وعسكرية وعلمية فائقة، هزّت البنية السياسية والاجتماعية، فلم يقف العرب والمسلمون إلا على ضوء فوهات مدافع نابليون بونابارت وهو يدق أسوار القاهرة. لا شك أن الحضارة الغربية اكتسبت من المفردات ومن عناصر الجدَة ما لم تكتسبه حضارات أخرى؛ حيث امتلكت أدوات القوة المادية وتناهت في القوة، قوة أن تحيا، ثم قوة التوسع على عدة جبهات، فنحن نعيش ضمن حتمية لا مخرج منها حتى الآن، هي هاته الحضارة الغربية التي غزت العالم بحداثتها، وتكاد تسيطر على كل شيء، وتزداد مع الزمن سيطرتها في حين أن حضارة الإسلام والعرب تزداد تقهقرا وضعفا، والواجب أن نسعى جاهدين من أجل رؤية النور الذي يبشر بالحرية من ربقة قيدها.

التجديد وأزمة التراث والإصلاح:

في بداية القرن العشرين، استيقظ الوعي الديني بجانب الوعي القومي وتطورت الأفكار الليبرالية والاشتراكية، أفكار كثيرة تتصارع مع بعضها البعض بتأثير الاستعمار الغربي الذي بدأ يتغلغل في المنطقة نهاية القرن الثامن عشر للميلاد، حيث عبر "شكيب أرسلان" عن هذه المحنة في كتابه المعنون بـ" لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم" حيث قال:" من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم؛ وهو من أشد الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به، ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء، وكيف يرجو الشفاءَ عليلٌ يعتقد بحق أو بباطل أن علّته قاتلته؟! وقد أجمع الأطباء في الأمراض البدنية أن القوة المعنوية هي رأس الأدوية، وأن أعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء، فكيف يصلح المجتمع الإسلامي ومعظم أهله يعتقدون أنهم لا يصلحون لشيء، ولا يمكن أن يصلح على أيديهم شيء، وأنهم إن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون أن يضارعوا الأوروبيين في شيء؟!" [25]. وصرخة "عبد الله النديم" لماذا تتقدمون ونحن نتأخر، أثارت هذه العلاقة بين الشرق والغرب والماضي والحاضر والتراث والحداثة تساؤلات عديدة من أهمها: كيف يستطيع العرب والمسلمون أن يتقدموا؟ وما هو السبيل إلى ذلك؟

من بين ردود الأفعال تجاه التجديد، تجديد الفقه الإسلامي وفتح باب الاجتهاد وربط الخطاب الديني بمقتضيات العصر والزمن الحديث من أجل مواجهة الغرب الاستعماري من جهة، ومواجهة الدولة العثمانية من جهة أخرى، أحدثت هذه القضية صراعات ساخنة منها أن كلّ تحديث غربي يُشكل خطرا على الإسلام ولذلك يرفض، فانقسم الرأي إلى قسمين: الأولى، فئة رأي المجددين، التي دعت إلى الإصلاح والتحديث والأخذ بعين الاعتبار عناصر الحضارة والثقافة الأوروبية المادية والمعنوية، أما الثانية، فئة رأي المحافظين، التي رفضت الطرح وتمسّكت بالنظام والتراث القديم ومؤسساته التقليدية وطالبت بالرجوع إلى الإسلام الأصلي وإعادة قراءته من جديد.

يمكن إجمال هذه الرؤى والتيارات الفكرية الحديثة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للميلاد، في النقاط الآتية:

الأول، التيار التقليدي: الذي يؤكد على ضرورة بقاء الخلافة الإسلامية المستندة إلى التراث الشرعي ودستور القرآن الكريم وضرورة الدفاع عنه والتمسك به، ومن هنا ظهرت مقولة طاعة ولي الأمر وتجددت باعتبارها واجبا دينيا كما عند شيخ الإسلام بن تيمية والإمام الماوردي.

الثاني، التيار الديني الإصلاحي: الذي نادى بالإصلاح عن طريق إحياء الإسلام والعودة إلى الأصل وتوحيد المسلمين في أمة إسلامية لمواجهة الغزو الحداثي الأوروبي الثقافي والاجتماعي والسياسي، مع الأخذ بأسباب الحضارة الغربية كالعلوم والتقنيات بشرط عدم التخلّي عن الدين كما عند "جمال الدين الأفغاني" و"مُحَمَّد عبده" و"رشيد رضا".

الثالث، التيار الليبرالي: ويتمثل في مجموعة من القوميين العرب الذين عملوا على إحياء اللغة العربية وآدابها، والسعي إلى إقامة وحدة عربية على أساس الأرض واللغة والانتماء، كما عند "ناصيف اليازجي" و"جورجي زيدان" و"قاسم أمين" و"معروف الرصافي".

الرابع، التيار التقدمي العقلاني: الذي نادى بالاشتراكية والتخلص من الاستبداد والتخلف عن طريق إحياء العلوم والمعارف مثل: "عبد الرحمن الكواكبي" و"شبلي شميل" و"فرح أنطون".

وقد أرجع "عبد الرحمن الكواكبي" إلى أن ما أصاب المسلمين هو بسبب وصاية الدين على السياسة، "دعونا ندبر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلتحي الأمة، فليحي الوطن، فلنحي طلقاء أعزاء" [26]، كما دعا إلى التفريق بين السلطات السياسية والدينية والتعليم. أما "شبلي شميل" فنادى بفصل الدين عن الحياة السياسية. وزاد "فرح أنطون" على سابقه الفصلَ بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، وإلى نظرية الدولة التي تقوم على الحرية والمساواة. وقد صدر بعد هذا كتاب "لعبد الرحمن

الجبرتي"(التقديس في زوال دولة الفرنسيس)، حيث وصف من ذكرنا بأنهم كفار وغزاة لأرض الخلافة الإسلامية، وأنهم ينادون بالدهرية والإلحادية وأنهم مارقة عن الدين، وفي كتابات "رافع رفاعة الطهطاوي" الذي أرسله "مُحَمَّد علي باشا" إلى فرنسا، فاطلع على التقدم الحضاري والاجتماعي والثقافي فانبهر بها أيما انبهار، حتى قال عن الغرب: إنهم عرفوا الدنيا فعرفوا الدين، وعرفت أنت الدين وجهلت الدين والدين معا. وقال: "لقد وجدت الإسلام في فرنسا ولم أجده في بلاد المسلمين" وبين "عبد الرحمن الجبرتي" و"رفعت رافع الطهطاوي"، ظهر تيار آخر هو "جمال الدين الأفغاني" و"مُحَمَّد عبده"، فصدرت مجلة " العروة الوثقى " التي دعا فيها "جمال الدين الأفغاني" المسلمين إلى فهم الدين فهما صحيحا، وإعادة بناء الأمة الإسلامية عن طريق قطف ثمار العقل والعلم الغربي بالاستفادة من العلوم والتكنولوجيا الأوروبية، وأكد أن الإسلام والعلم لا يتناقضان.

وقد أجمل "مُحَمَّد عمارة" مشروع الإحيائيين والتجديديين في نقاط رئيسية؛ حين دعا إلى نقد ورفض الجمود والتقليد، وطرح فكرة التجديد الإيجابي بقوة، ونظر فيها التحرر من التقليد الأعمى، وأمر فيها بفهم الدين على طريقة سلف الأمة والرجوع في كسب معارف الدين إلى ينابيعها الأولى، كما اعتبر الدين من ضمن موازين العقل البشري. وجعل الإصلاح بالإسلام الوسطي أصل الأصول، بالإضافة إلى دعوته الجمع بين العقل والنقل، والوعي الدقيق بسنن الله الكونية، وإعطاء القضايا المصيرية حقّها كالشورى والعدالة الاجتماعية وحقوق المرأة[27]..

الحداثةُ الواقعُ المفروض:

المشكلة من الناحية الدينية أننا نعيش واقع الحداثة، وهي تسيطر على الحياة والأفكار، والدين نشأ في واقع وبيئة مختلفة تماما عن هذه البيئة التي نعيش فيها اليوم، وكذلك بيئات من أتوا بعد الدين واعتنقوه بيئاتُهم مختلفة عن واقع اليوم، وهذا الدين كمنقول وتراث قديم أصبح من العسر اليوم بمكان تطبيقه بسلاسة تجاه الحداثة المعاصرة، أما من الناحية الدنيوية الحياتية، فما نحياه من حداثة غربية هو مستورد بالكامل ولا نملك زمام منشئه ومصدره.

ويمكن أن نجمل أسباب عدم النهوض والاستقلال عن الحداثة الغربية والاستغناء عنها إلى النقاط الآتية:

ـ تخلف البنية الفكرية والمجتمعية، فالتربة العربية الإسلامية لم تكن صالحة للدخول إلى الحداثة كما هي في أوروبا(ثورة صناعية، ثورة زراعية، ثورة برجوازية..) وعند العرب والمسلمين لم يحدث هذا الأمر فلم تتطور رأسمالية صناعية بل رأسمالية تجارية.

ـ المفكر الجزائري الفرنسي "مُحَمَّد أركون" يؤكد على أن أهم سبب من أسباب فشل النهضة هو غياب العقل وعدم استقلاليته.

ـ غياب الحرية عن عناصر عدة فكرية واجتماعية وعلمية وشخصية.

ـ عدم المشاركة في صنع التقنية الحديثة، لأننا نعيش مما استوردناه من الآخر.

يقول "مُحَمَّد خاتمي": "وإذا ما قُدّر لأمة أن تتغير، فإنه ينبغي لها أن تستشعر وجودها وشخصيتها من خلال ارتكازها إلى هويتها التاريخية، لكي تتمكن من الانطلاق منها.. ألم يستيقظ الغرب بفضل عودته إلى التراث" [28] اليوناني الفكري والفني، والتراث الروماني الاجتماعي (عصر النهضة).

وفي هذا الصدد يحرص الحداثيون "على التمسك بشعار الحديث والتحديث، ويعبرون عن ذلك بالحداثة.. فالتحديث لا يعني تجديد القديم أو إحياء التراث ونحو ذلك، وإنما يعني ابتداء فكراً جديدا نقيض القديم، هذا ما فهموه وتمسكوا به. وعبّروا عنه بالحداثة التي هي تعريب لكلمة أجنبية. ولهذا فهم لا يرضون بوصف المعاصرة أو التجديد؛ لأن هذين الوصفين لا يُفهم منهما مخالفة القديم" [29]، فتنطوي عبارة الحداثة على السُّذّج من المسلمين، وهو واقعهم اليوم، والشاهد على انطلاء الخدعة.

الخاتمة:

في ختام البحث نوصي بضرورة الاهتمام بمصادر الإسلام العظام، عن طريق إيصال الوعي الكامل بما تحويه من طرق استدلالية سليمة وأصيلة كما هي عند علماء الأمة الأولين، في علوم القرآن والسنة وأصول الفقه والتفسير. ويعضد هذا العمل بحتمية مواجهة مشروعات الفكر الحداثي بمختلف أشكالها، وبذل الوسع في تفنيدها بعد إظهارها وجمعها. كما يتعين –وفي نفس السياق– كشف زيفها وبيان انحرافها. والدعوة إلى تربية الشباب والناشئة على المبادئ الإسلامية العقدية الصحيحة، وغرس مبدأ الاستسلام لأحكام الشرع وعدم مخالفته أو مجادلته، من خلال تأكيد ذلك عبر مؤسسات التعليم التربوية بمختلف مراحلها، والاستعانة بوسائل الاعلام المرئية والمسموعة، وشبكات التواصل، لفضح مخططات الفكر الحداثي، وكشف حقيقتها الفكرية، وهتك أستارها التي تتستر بها كدعاوى التجديد في الأدب واللغة والفن والشعر، عن طريق الردود العلمية الرصينة التي ترفع جانب الوعي لدى شباب الأمة وأبنائها بخطورة المناهج الحداثية، وبيان أنها تكدّ وتجهد لعزل الدين الإسلامي عن أهله، وفصل ثوابته ومقدساته عن المؤمنين به.

إن عمليات التحديث أو الحداثة بالأحرى لا يحق لها اللعب بالقيم العليا الحاكمة، بل يجب أن تراعي الطابع الأخلاقي القيمي الحضاري الإسلامي، وتحفظ البقاء والاستمرار مع حياة العربي والمسلم، ولابد أن يصاحب ذلك كل تحديث، فللمسلم حداثته التي تليق به وعلى مقاسه الذي يرتضيه، وللإنسان الغربي حداثته التي تناسبه

وتلائمه، وكما أن للغرب خصوصية في علاقتهم بتاريخهم وإرثهم الحضاري؛ فكذلك للمسلمين خصوصية في علاقتهم بموروثهم الحضاري وتاريخهم الإسلامي، فلا يملي أحدٌ على غيره شيئا.

ينبغي التعامل مع التراث بمنهج واستبصار ومعرفة واعتبار، فلا نولي جوانب جزئية منه، على حساب أخرى، أو نعزلها عن واقعها، ونخرجها من سياقها، ونفرغها من مضمونها وموضوعها، فالواجب النظر فيه نظرا عميقا بالتحقيق والتدقيق في الحوادث ومآلاتها وعواقبها، وفي معانيها وما رواءها، أي استنطاقٌ للشواهد واستقراؤها، عدلٌ في القول، وموضوعية في الطرح، لا تلغي التراث ولا تقدس إلا ما قدسه الوحيان (الكتاب والسنة).

إن التجديد في التراث والدين عملية معقدة مليئة بالأشواك، إذ تعالج دين الإسلام وأصوله العظام، فلا بدّ أن يتصدى لها أهلها العلماء الأفذاذ الربانيون الثقات، ووفق منهج استدلالي متين ورصين، يعتمد ينابيع صافية نقية، أو بالأحرى يشترط للمجدد ما يشترط للمجتهد، وقد مر بنا أن من معاني التجديد بذل الجهد والاهتمام في الشيء. وأن يكون المجدد على دراية بالفوراق بين ما يستساغ فيه التجديد وبين ما لا يقبل التغيير أو المساس به أصلا، كأصول العقيدة وأركان الإسلام، أما حوادث الأمور المعاصرة الطارئة فإنها خاضعة هي أيضا إلى نصوص الوحيين الكتاب والسنة، وليس العكس كما أدعياء التجديد.

والتراث إن عُني به القرآن الكريم والسنة النبوية وما جاء عنهما، أو أجمع عليه أهل العلم، يجب التسليم له وقبوله وتنفيذه، ولا يسوغ فيه التجديد البتة، ويسري حكمه على جميع مجالات الحياة؛ وإن قُصد به الأفكار وثقافات الشعوب وعاداتهم، فترجع إلى قبول الحكم الشرعي لها أو رده.

والحداثة تهديد إذا مست أصول الدين وفروعه، أو أفسدت ما قال فيه الدين كلمته من المعاملات المعيشية، ولا بأس بالتجديد في أمور دنيا الناس ما لم يتعلق به حكم شرعي صريح.

الإحالات:

---

[1] حسن حنفي، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط4، 1992م، ص 13.

[2] محمد بن عبد العزيز العلي، الحداثة في العالم العربي دراسة عقدية، رسالة دكتوراة، اشراف: ناصر بن عبد الكريم العقل، كلية أصول الدين – الرياض، 1414ه، ص19-20.

[3] طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط1، 2006م، بتصرف، ص23.

[4] محمد خاتمي، الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999م، ص9.

[5] طه عبد الرحمن، روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء – المغرب، ط1، 2006م، ص23.

[6] حسن حنفي، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط4، 1992م، ص 26.

[7] محمد خاتمي، الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999م، ص10.

[8] ديزيرهسقال، حركة الحداثة طروحها وإنجازاتها، منشورات ميريم، بيروت – لبنان، ط1، 1991م، ص45.

[9] أحمد عبد الحليم عطية، نيتشه وجذور ما بعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت-لبنان، ط1، 2010م، ، ص200.

[10]ألان تورين، نقد الحداثة، ترجمة أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة 1997م، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية 1998م، ص30-31

[11]محمد سبيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2009م، ص174.

[12]زينب عبد العزيز، هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة الحداثة والأصولية، دار الكتاب العربي(دمشق-القاهرة)، ط 1، 2004م، ص 156.

[13]زينب عبد العزيز، هدم الإسلام بالمصطلحات المستوردة الحداثة والأصولية، دار الكتاب العربي(دمشق-القاهرة)، ط 1، 2004م، ص 157.

[14]عبد الجبار الرفاعي، الدين وأسئلة الحداثة محمد أركون ومصطفى ملكيان وعبد المجيد الشرفي وحسن حنفي، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 2015م، ص8.

[15]حسن حنفي، التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، المؤسس ة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ط4، 1992م، ص33.

[16]محمد عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة – جمهورية مصر العربية، ط1، 2003م، ص15.

[17]ناصر الدين بن عبد الرحمن النعيمي، براءة الإسلام من العلمانية والديمقراطية، مكتبة أنوار التوحيد، ط 1، محرم 1435ه، ص41.

[18]ماجد بن علي الزميّع، الدولة المدنية بين الاتجاه العقلي الإسلامي المعاصر والاتجاه العلماني دراسة عقدية، دار الفضيلة، المملكة العربية السعودية، ودار الهدى النبوي، مصر، ط1، 2013م، ص80-81.

[19]محمد سبيلا، مدارات الحداثة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 2009م، ص123-124.

[20]محمد خاتمي، الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999م، ص15.

[21]محمد خاتمي، الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999م، ص15.

[22]رشيد رضا، منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق، مجلة المنار، الجزء العاشر، شهر ربيع الأول،1325هـ، ص279.

[23]رشيد رضا، منافع الأوروبيين ومضارهم في الشرق، مجلة المنار، الجزء العاشر، شهر ربيع الأول،1325هـ، ص279.

[24]شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم، مؤسسة هنداوي سي آي سي، دط، دت، 3 هاي ستريت، وندسور – المملكة المتحدة ص89.

[25]شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون و لماذا تقدم غيرهم، مؤسسة هنداوي سي آي سي، دط، دت، 3 هاي ستريت، وندسور– المملكة المتحدة ص89.

[26]عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، دار الكتاب المصري، القاهرة – دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2011م، ص152.

[27]محمد عمارة، مستقبلنا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة – جمهورية مصر العربية، ط1، 2003م، ص19-25

[28]محمد خاتمي، الدين والتراث والحداثة والتنمية والحرية، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999م، ص9.

[29]محمد بن عبد العزيز العلي، الحداثة في العالم العربي دراسة عقدية، رسالة دكتوراة، اشراف: ناصر بن عبد الكريم العقل، كلية أصول الدين – الرياض، 1414ه، ص30.